

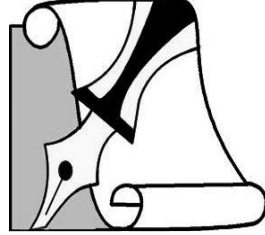


مركز البحوث الفلسطينية والاستراتيجية

التقدير نمف الشهرى

تحليل للتطورات السياسية
والأمنية فى «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com



**مركز الدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية**

تحليل نصف شهري للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

- 1 إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمم.
- 2 الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.
- 3 بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.
- 4 إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

الدور الإسرائيلي في حرب القوقاز

1 - مقدمة:

في 27 أيلول 2020، اندلعت اشتباكات دامية بين أذربيجان وأرمينيا، أسفرت عن مقتل وإصابة المئات، مما فتح الباب أمام تساؤلات كثيرة عن أسباب نشوب الصراع بين البلدين، بينما تمحور الجدل حول خريطة تحالفات الدولتين.

في الظاهر يدور الصراع بين البلدين على إحدى المناطق المتنازع عليها، لكن باحثين يرون أن دولاً حليفة لكل من أذربيجان وأرمينيا تعمل على تأجيج وإشعال هذا الخلاف القديم لحساب مصالح اقتصادية مستجدة. فقد اندلعت الاشتباكات بين أرمينيا وأذربيجان في منطقة ناغورنو كاراباخ، المتنازع عليها بين البلدين، على خلفية اتهامات متبادلة بين الجانبين بمهاجمة المدنيين.

وناغورنو كاراباخ مصطلح يتكون من كلمتين، هما كاراباخ وهي كلمة ذات أصل تركي مؤلفة من مقطعين تعني "الحديقة السوداء"، والسواد هنا إشارة إلى الاخضرار الداكن في تلك الحديقة.

والكلمة الثانية ناغورنو هي كلمة ذات أصل روسي ومعناها "مرتفعات جبلية" أو "هضبية"، أي أن اسم المنطقة يعني "مرتفعات الحديقة السوداء". وهذه المنطقة تعد جيباً أرضياً جلياً صغيراً، لا تزيد مساحته عن نصف مساحة لبنان، ولا يزيد عدد سكانه عن 150 ألف نسمة، أغلبهم من الأرمن مسيحيي الديانة.

تنتمي جمهورية أذربيجان إلى الإثنية التركية، ولأن معظم الدول التي نشأت حديثاً إثر الحرب العالمية الأولى والثانية تم تشكيلها على أساس قومي وليس دينياً، فإن القومية في هذا المجال تسمو على غيرها من العناصر. ومن هذا المنطلق، يُعرّف الأذربيجانيون أنفسهم من باب الهوية القومية التركية وليس

الطائفية الشيعية، ولذلك فهم أقرب إلى تركيا منهم إلى إيران. والإيرانيون لا ينظرون كذلك إلى المواطنين في جمهورية أذربيجان على أنهم شيعة موالون لأهل البيت (ع) بالطريقة نفسها التي ينظرون إليها على سبيل المثال إلى بعض الشيعة الاثني عشرية الموالين لهم في لبنان والعراق والبحرين، والكويت.. الخ وعلاوةً على ذلك، فإنّ تبنيّ أذربيجان النموذج العلماني-القومي يضعها في تناقض تام مع النموذج الديني الايديولوجي الذي تُقدّمه إيران.

في تقدير بعض الباحثين إن العنصر الطائفي يظهر مع تخوّف الجانب الإيراني من أن يمثل نجاح نموذج أذربيجان (العلماني-القومي) خطراً على النموذج الإيراني الذي يقدم نفسه من الزاوية الطائفية بحيث يصبح نموذج أذربيجان جذاباً للشيعة الإيرانيين وللأذريين الإيرانيين أيضاً بشكل يؤدي إلى تقويض نموذج الحكم الايراني الديني. علاوةً على ذلك، فإنّ أذربيجان كانت تتخوّف بشكل دائم من سياسة تصدير الثورة التي تنسب إلى النظام الإيراني ولذلك حمت نفسها من خلال التقرب إلى الغرب، الأمر الذي ساعد في توسيع الفجوة بين الطرفين لاسيما مع توجّه إيران باتجاه روسيا لتخفيف الضغوط الغربية عنها. ومن هذه الزاوية بالتحديد، فإنّ إيران أقرب إلى أرمينيا. ويرى الباحثون أن هناك جزءاً من الموقف الإيراني يتعلق بالحسابات الأمنية أيضاً. فأذربيجان علمانية- قومية- قوية ومزدهرة تشكّل حافزاً ليس فقط للشيعة الإيرانيين بشكل عام وإنما للشيعة الإيرانيين من القومية التركية. المواطنون الإيرانيون الأذريون يُشكّلون حوالي ربع إلى ثلث عدد السكّان في إيران. وتختلف التقديرات باختلاف المراجع والتوجهات الايديولوجية، وهناك من يُقلّل من نسبتهم ويجعلها أقل من ذلك. لكن في جميع الأحوال، من المتفق عليه أنّ الأذريين-الأتراك من مواطني إيران هم أكبر أقلية على الإطلاق بعد الفارسية ويتركّزون بشكل أساسي في منطقة أذربيجان في الشمال الإيراني. وبسبب الهجرات المتتالية من تلك المنطقة إلى العاصمة، يُعتقد كذلك أنّ حوالي ثلث سكّان طهران أصبحوا من الأقلية الأذرية.

إن دعم أرمينيا ضد أذربيجان يحول دول تواصل الأذريين الإيرانيين بأقرانهم بأذربيجان ودون إحياء أحلامهم الاستقلالية. وسبق لمقاطعة أذربيجان التي تقع في شمال إيران أن أعلنت استقلالها عن إيران

وقيام جمهورية أذربيجان الشعبية في العام ١٩٤٥، مُتَّخِذَةً من تبريز عاصمة لها. صمدت هذه الجمهورية عاماً واحداً قبل أن تنتهي بعد تدخل الجيش الإيراني على أيام الشاه، بدعم غربي لاسيما من الولايات المتحدة الأميركية.

في الجانب الأمني أيضاً، يشير البعض إلى أنّ دعم إسرائيل لأذربيجان هو عامل محدّد في موقف إيران ضد أذربيجان. ووفقاً لأرقام العام ٢٠١٧، تحتل أذربيجان المرتبة الثالثة في قائمة أكبر مستوردي السلاح من إسرائيل بواقع ١٣٧ مليون دولار، ومن المعروف أنّ تل أبيب تزوّد باكو على وجه الخصوص بطائرات انتحارية من دون طيار.

هناك جزء يتعلق بالحسابات المصلحية أيضاً وبالتنافس التركي- الإيراني. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي في أواخر الثمانينيات وانحلاله بشكل رسمي في نهاية العام ١٩٩١، حاولت تركيا، العضو في حلف شمال الأطلسي، أن تمدّ نفوذها إلى آسيا الوسطى والقوقاز على اعتبار أنّ معظم هذه المناطق هي جزء ممّا يسمى بالعالم التركي الذي تقطنه شعوب من القومية التركية، لكنّ روسيا قاومت هذا المشروع خوفاً من تمدّد الناتو إلى تخومها، وكذلك فعلت إيران.

لقد تقاطعت مصالح موسكو مع مصالح طهران آنذاك في مواجهة الدور التركي الذي يُنظر إليه على أنّه منافس لهما في مناطق تعتبرها روسيا جزءاً من إمبراطوريتها السوفيتية السابقة، وتعتبرها إيران تاريخياً جزءاً من بلاد فارس الكبرى ومن الثقافة الفارسية. ولذلك، فقد فضّلت موسكو بعد انهيار الاتحاد السوفيتي مباشرة أن تتيح لإيران هامشاً واسعاً في هذه المنطقة .

المسؤولون الإيرانيون يشددون مؤخراً على أنّهم يفضلون الحل السلمي، لكنّهم كانوا قد لمّحوا في أكثر من مناسبة أنّهم يفضلون بقاء احتلال أجزاء واسعة من أذربيجان على اندلاع حرب جديدة تؤدي إلى صعود القومية التركية في المنطقة وإلى نشوء حزام تركي محيط بهم أو إلى تدخل قوّات تركية لمساعدة باكو.

النقطة الأخيرة هنا هي أنّ أذربيجان دولة غنية بالغاز والنفط، وهي من هذه الزاوية أيضاً تزعج روسيا وإيران لأنها تنقل الغاز إلى تركيا وعبرها إلى أوروبا أيضاً وهذا يقوّض من الوضع الاقتصادي للبلدين. وتقوم أنقرة مؤخراً بتخفيف الاعتماد على صادرات الطاقة من موسكو وطهران لحماية أمن الطاقة لديها وللتخلص كذلك من عبء الارتهان إلى البلدين والذي يقيد خياراتها السياسية ونطاق المناورة لديها. وقد برزت أذربيجان العام الماضي كأكبر مصدر للغاز إلى تركيا لتحل محل روسيا وتتقدم على إيران أيضاً ولا شك أنّ الضغط على أذربيجان من بوابة أرمينيا يدخل في حسابات الطاقة أيضاً.

2- خريطة التحالفات:

تجدر الإشارة أولاً إلى أن إسرائيل كانت قد اقتربت من أرمينيا في السنوات الأخيرة على خلفية تدهور العلاقات بينها وبين تركيا، كنتيجة لسياسة أردوغان المناهضة لإسرائيل. وفي السنوات الأخيرة تتردد إسرائيل في مسألة هل تعترف بقتل الشعب الأرمني كرد على سياسة أردوغان - وهي الخطوة التي من المؤكد ستدهور العلاقات مع تركيا أكثر فأكثر. لكن يشير الباحثون إلى أن خريطة التحالفات هي وراء تجدد الصراع التاريخي بين أذربيجان وأرمينيا، ويعود أصل المشكلة الحديثة الخاصة بالإقليم إلى بدايات الاتحاد السوفياتي، عندما قام جوزيف ستالين بمنح الإقليم لأذربيجان، عام 1923، ضمن تسوية لإنهاء خلاف بين الأخيرة وبين أرمينيا. وبقيت تلك الأراضي جزءاً من الأراضي الأذربيجانية حتى عام 1988، حين أعلن سكان ناغورنو كاراباخ رغبتهم في الانضمام لأرمينيا والانفصال عن أذربيجان. وعليه، بدأت الحرب بين البلدين الذين كانا ضمن الاتحاد السوفياتي، ولم يتوقف إطلاق النار إلا في عام 1994، بعد سقوط نحو 30 ألف قتيل ونزوح نحو مليون إنسان. والنزاع في الأساس هو بين دولتين لهما تنافر أيديولوجي بالغ العداء، وكأنك تتحدث مجدداً عن العداء بين الهند وباكستان للسيطرة على كشمير. فأذربيجان ذات تراث إسلامي 'بتأثير شيعي' في مقابل أرمينيا ذات التراث

المسيحي 'بتأثير علماني'. وأكثر ما يثير الاهتمام في الصراع الأذري الأرمني هو تحالفات الدولتين، إذ تدعم تركيا السنية أذربيجان الشيعية بسبب رابطة الدم العرقي، والتي يعتبرها الأتراك أهم من المذهب الديني، لأن الأذريين ينتمون إلى العرق التركي. كذلك تدعم تركيا أذربيجان لأن أرمينيا تتهم أنقرة بقتل أكثر من مليون أرمني، وتطالبها بتعويضات سوف تتجاوز مليارات الدولارات، بينما تلجأ دول عديدة مثل فرنسا لقضية الأرمن من أجل الضغط على أنقرة. من جهة أخرى تدعم إيران الشيعية أرمينيا المسيحية، على الرغم من وجود مصالح اقتصادية وترابط ديني لطهران مع أذربيجان الشيعية. ومع ذلك، يتفق كثير من المحللين أن المصالح الاقتصادية والعسكرية لإيران مع أرمينيا أهم من مصالحها مع أذربيجان، كما أن الأخيرة تتبنى المذهب الشيعي لكن على الطريقة الليبرالية مثل تركيا السنية العلمانية، بعكس أرمينيا المسيحية المتشددة مذهبياً مثل طهران المتشددة إسلامياً. وفي إيران توجد أقلية أذرية، وهي تُعد من أهم التركيبات السكانية في الجمهورية الإسلامية، ويختلف الباحثون حول نسبتهم، فهناك من يقول إنها لا تتجاوز 16% بينما يؤكد آخرون أن عددهم يتجاوز 24%. وبالتالي فإن عدم التجانس العرقي ووجود أقلية أذرية كبيرة في إيران جعل طهران تفضل دوماً التحالف مع أرمينيا ضد جارتها الشقيقة.

بموازاة ذلك، تتحفظ إيران إزاء هذه الأقلية لأنها تخشى من حصولها على الاستقلال بدعم من الدولة الأم أذربيجان، الصاعدة اقتصادياً والمتحالفة مع إسرائيل عدو طهران. ومع ذلك ففي أول رد فعل، دعت إيران جارتها أذربيجان وأرمينيا إلى ضبط النفس، مبدية استعدادها للمساعدة في بدء محادثات بينهما. أما حول دور إسرائيل في هذا الصراع، فقالت صحيفة "جيروزالم بوست" الإسرائيلية إن إسرائيل وأذربيجان تتمتعان بعلاقات وثيقة منذ سنوات عديدة، مشيرة إلى أن أذربيجان كانت واحدة من أكثر الدول الإسلامية انفتاحاً على تل أبيب، ومهتمة بإقامة علاقات أوسع وأكثر دفناً على مر السنين مع الدولة العبرية. وكان وزير خارجية أذربيجان قد زار إسرائيل عام 2013، كما زار وزير الدفاع الأذري تل أبيب عام 2017. وزار رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو أذربيجان عام 2016، وتبعه وزير

الخارجية الإسرائيلي السابق أفيغور ليبرمان بزيارة أخرى لباكو عام 2018. وتولي إسرائيل أهمية كبيرة لأذربيجان لأنها تُعد من أهم مصادر الطاقة لتل أبيب التي تستورد أكثر من 40 % من طاقتها من أذربيجان. كما ترى إسرائيل أنه يمكن الاعتماد على العاصمة الأذرية في الحصول على الطاقة، حتى لا تتكرر أزمة قطع النفط عن تل أبيب كما فعلت الدول العربية خلال حرب 1973.

يتم نقل موارد الطاقة من أذربيجان إلى الدولة العبرية عبر خط أنابيب "باكو - تيبليسي - جيهان التركية"، ومن تركيا يتم شحنه إلى إسرائيل. وتطمع تل أبيب أن ينقل لها النفط والغاز من أذربيجان ثم يتم نقله إلى أوروبا أو شحنه إلى إيلات لنقله إلى آسيا بعيداً عن قناة السويس المصرية. وتعد أذربيجان من أكبر مستوردي المعدات العسكرية الإسرائيلية، إذ أبرمت باكو اتفاقيات تسليح مع إسرائيل بقيمة 5 مليارات دولار في السنوات القليلة الماضية. أما اللاعب الأكثر أهمية في هذا الصراع فهو روسيا، الحليف الأكبر لأرمينيا، والتي أبرمت مع الأخيرة اتفاقية دفاع مشترك ولها قاعدة عسكرية هناك، كما تستحوذ على معظم صفقات السلاح مع أرمينيا. وقد أدى التحالف أو التفاهم الروسي الإيراني دوراً كبيراً في ضمان أمن أرمينيا، خصوصاً في ما يتعلق بموارد الطاقة القادمة من طهران التي تبحث عن أسواق في ظل العقوبات الأمريكية. وتشارك أرمينيا وإيران وروسيا في عدة مناورات عسكرية كان آخرها في 11 أيلول 2020 بمشاركة الصين وباكستان.

من ناحية أخرى يعتبر الخبراء ووسائل الإعلام، أن السبب الرئيس الكامن وراء أهمية هذه الأزمة بالنسبة لإسرائيل، هو ابتعاد الولايات المتحدة عن أداء دورها القديم في مختلف الأراضي التي يكون لإسرائيل أيضاً مصالح فيها، أو تلك التي ستترك التحولات الجارية فيها تأثيراً على إسرائيل. وقد كتبت صحيفة "جيروزاليم بوست" الإسرائيلية، يوم الأحد الواقع في 27 أيلول 2020، أنه كلما ابتعدت الولايات المتحدة عن أداء دورها المهيمن في المنطقة، فإنّ دولاً إقليمية مثل تركيا وإيران وأيضاً إسرائيل، تكون مرغمة على أن يكون لها دورٌ أكبر. لكنّ إسرائيل بدأت تتوجّس من الدور التركي، الذي يزداد نشاطاً في المنطقة، ومن ضمنها منطقة القوقاز، بعد تراجع الدور الأمريكي في جميع

المجالات. لقد أسفرت الحرب بين هاتين الجمهوريتين عن سقوط ما يقارب 30 ألف قتيل في عام 1988؛ وأظهرت الاشتباكات التي استمرت لبضعة أيام في شهر تموز من العام الجاري، أنّ هذه الخلافات، ما زالت متوقّدة مثل جمرة تحت الرماد. والآن، ليست تركيا والدول المجاورة لها مثل إيران وروسيا فقط من تتقرب تداعيات هذا التوتّر، وإنما إسرائيل أيضاً. حيث ذكرت وسائل إعلام إسرائيلية، انه على الرغم من بعد إسرائيل، جغرافياً، عن جنوب القوقاز، إلا أنّها توازن بين موقفها وأدائها تجاه هذه المنطقة، وفقاً لما ينتهجه باقي اللاعبين، ومن بينهم تركيا.

حتى وقت قريب، كان من الواضح تماماً أنّ إسرائيل ترغب في أن يكون لباكو اليد العليا في الصراع العسكري والنزاع على الأراضي بين أذربيجان وأرمينيا، لا سيّما أنّ أذربيجان أبدت، خلال السنوات الأخيرة، اهتماماً بإقامة علاقات واسعة النطاق مع إسرائيل.

إنّ الحقيقة التي مفادها أنّ أذربيجان تؤمّن 40% من احتياجات إسرائيل من النفط، وأنّها أصبحت أيضاً زبوناً للسلاح الإسرائيلي في العقد الأخير، لم تكن وحدها سبب أهمية أذربيجان بالنسبة لإسرائيل. وفي هذا السياق، صرّح "أفيغدور ليرمان" وزير الخارجية الإسرائيلي الأسبق، عام 2012 في كلامٍ موجّهٍ إلى إيران، إنّ "أذربيجان بالنسبة لإسرائيل هي أهم من فرنسا". وخلال اشتباكات تموز من العام الجاري 2020، بين الجيش الأذربيجاني والجيش الأرميني، قال خبراء إسرائيليون إنّ أحد المعايير الحاسمة في "ضرورة دفاع إسرائيل عن أذربيجان، ودعم جيشها بالسلاح" يتمثل في "الأهمية الاستراتيجية" للعلاقات بين أذربيجان وإسرائيل، بخصوص إيران، لا سيّما مع وجود حدود طويلة لأذربيجان مع إيران. كما أنّ بعضاً من هؤلاء الخبراء الإسرائيليين كانوا قد تحدثوا عن أهمية وجود إسرائيل ونشاطها على الحدود الشمالية لإيران. ففي شهر حزيران من العام الحالي، كتب "ريتشل أوراها"، المحلّل في المركز الدبلوماسي الإسرائيلي بمدينة صفد، في جريدة "إسرائيل هيوم" إنّ على إسرائيل، في هذا الصراع، أن تقف إلى جانب باكو، لأنّ "أذربيجان هي عين إسرائيل وأذنها ضدّ إيران". وزعم بعض التقارير، خلال شهر حزيران الفائت، أنّ مركز إنتاج أجهزة الطرد المركزي في

موقع نطنز النووي، تم استهدافه من قبل طائرات مسيرة إسرائيلية انطلقت من أذربيجان، رغم أن وزارة الدفاع الأذربيجانية نفت هذه المزاعم عبر بيان رسمي.

في وقت سابق أيضاً، تناقلت تقارير إعلامية معلومات؛ تفيد بضلوع جمهورية أذربيجان في قضية سرقة الوثائق النووية الإيرانية في شباط 2017، وزعمت هذه التقارير أن العملاء الذين تعاونوا مع الموساد الإسرائيلي، سرقوا الأرشيف النووي الإيراني من أطراف طهران، وأوصلوه، عبر الطرق البرية، إلى جمهورية أذربيجان، ليتم نقلها بعد ساعات، عبر طائرة، إلى إسرائيل التي لظمت الصمت حيال هذه المزاعم، في حين أن أذربيجان ردت عليها بالنفي.

بالتزامن مع تحسن علاقاتها مع جمهورية أذربيجان، أبدت إسرائيل، سرّاً وعلانية، استياءها من علاقات أرمينيا مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية، إذ ترى وسائل الإعلام الإسرائيلية أن دفاع إيران عن أرمينيا؛ له صلة بالتقارب بين إسرائيل وأذربيجان.

كلما برزت قضية مبيعات الأسلحة الإسرائيلية إلى أذربيجان بين المؤيدين والمعارضين في إسرائيل، انبرى بعض المدافعين عن هذه الصفقات، للقول بأن يريفان متعاونة مع إيران التي تُعتبر "ألد أعداء إسرائيل"، وذلك من خلال الإشارة إلى زيارات وزير دفاع أرمينيا وكذلك رئيس وزرائها لطهران، خلال السنوات الماضية. وفي صيف العام الجاري 2020، خرجت أرمينيا عن صمتها حيال استخدام أذربيجان الأسلحة الإسرائيلية، وطلبت يريفان رسمياً من إسرائيل إيقاف هذه الصفقات "القاتلة". وانتقد رئيس الوزراء الأرميني، نيكول باشينيان، إسرائيل لتسليحها أذربيجان، العازمة على "تنفيذ إبادة جماعية ضد الأرمن في ناغورني قره باغ"، على حد قوله.

وقال باشينيان في مقابلة مع صحيفة "جيزوراليم بوست": "إن إسرائيل وقفت إلى جانب الإرهابيين والمرترقة في دعم أذربيجان في الصراع الحالي مع أرمينيا، وستعاني في النهاية من عواقب هذا التحالف". وبينما لم تعلق إسرائيل رسمياً على القتال وتحاول وزارة الخارجية إبعاد إسرائيل عن الصراع، قال باشينيان إن إسرائيل "تشارك الآن بنشاط كبير في الصراع، لأن الطائرات الإسرائيلية المسيرة بدون

طيار تُستخدم في الحرب". وفي الأول من تشرين الأول 2020 وبعد أسبوعين فقط من فتح سفارة أرمينيا في تل أبيب، أعلنت أرمينيا أنها استعدت سفيرها في إسرائيل أرمين سمباتيان، لإجراء "مشاورات" معه على خلفية "توريد" الحكومة الإسرائيلية أسلحة لأذربيجان. وقال رئيس الوزراء الأرميني للصحيفة: "أعتقد أن على إسرائيل أن تفكر فيما يلي بان المرتزقة والإرهابيين وإسرائيل هم الآن في الجانب نفسه بشكل أساسي. لذا يجب أن تفكر إسرائيل، هل هذا حقاً موقف مناسب لها؟".

وتعليقاً على الاقتراح الإسرائيلي بتقديم المساعدة إلى يريفان، قال باشينيان: "مساعدات إنسانية من قبل دولة تتبع الأسلحة للمرتزقة، والتي يستخدمونها لضرب السكان المدنيين المسالمين؟ أقتراح أن ترسل إسرائيل تلك المساعدة إلى المرتزقة والإرهابيين كاستمرار منطقي لأنشطتها". وخلال التوترات العسكرية لبلاده مع أذربيجان في شهر حزيران 2020، قال "سهراب مناتسكانيان" وزير الخارجية الأرميني، في مقابلة مع وسائل الإعلام الإسرائيلية، إنّ الأسلحة الإسرائيلية التي يستخدمها الجنود الأذريون، تدمر البنى التحتية المدنية في أرمينيا.

مع ذلك، فقد افتتحت أرمينيا سفارتها في تل أبيب، بينما تقول إسرائيل إنّه ليس لديها خطط لأن يكون لها سفارة في يريفان في الوقت الحالي. بينما لم توافق أذربيجان بعد على فتح سفارتها في إسرائيل، وفي الوقت ذاته تؤكد على اهتمامها بتوسيع وتعزيز العلاقات مع طهران. لكنّ سفارة إسرائيل في باكو هي من أهم البعثات السياسية لإسرائيل في الخارج، وبحسب وسائل الإعلام الإسرائيلية، فإنّ وزارة خارجية إسرائيل ترسل دائماً دبلوماسيين ذوي خبرة إلى سفارتها في باكو، كما يُعتبر "جورج ديك"، سفير إسرائيل الجديد في باكو، واحداً من "الدبلوماسيين المحنكين".

خلال العقد الأخير، ركزت إسرائيل في سياستها الخارجية على تعزيز معسكر الدول المناهضة للجمهورية الإسلامية الإيرانية، لكنها في الوقت نفسه، تتعامل تعاملاً خاصاً مع روسيا، التي تُعتبر صديقاً مقرباً لإيران وأرمينيا، وعليها أن تأخذ التحفظات الروسية بعين الاعتبار. والآن، ووفقاً لأقوال السياسيين ووسائل الإعلام الإسرائيلية، فإنّ حكومة بنيامين نتنياهو، وعلى الرغم من إنجازاتها الأخيرة

في التقرب من الإمارات العربية، مضطرة لأن تنتبه كثيراً إلى دور تركيا في منطقة القوقاز، إلى جانب توحيها الحذر من إيران. وفي السياق، يعتقد الصحافي الإسرائيلي "سيث فرانترمن" أن تركيا تسعى إلى "عزل" إسرائيل بشتى السبل المتاحة. على الرغم من أنه كان من الواضح حتى الآن؛ اصطفاً إسرائيل إلى جانب أذربيجان في صراعها مع أرمينيا، لكن يبدو أن دعم تركيا القوي، مؤخراً، لأذربيجان أثار توجس إسرائيل. فخلال اشتباكات الصيف بين أذربيجان وأرمينيا، التي خلفت ستة عشر قتيلاً، قالت أنقرة إن "أي هجوم على أذربيجان هو بمثابة الهجوم على تركيا، وستكون كل القدرات التركية في خدمة أذربيجان".

من جهة أخرى، تعتبر إسرائيل تصريحات رجب طيب أردوغان تهديداً جدياً ضدها، وتتابع بتوجس الخطوات التركية في مختلف المجالات، لا سيما بعد تراجع الدور الأمريكي، حتى لو بدت العلاقات السياسية الكاملة مصونةً بين البلدين. وفي إشارة إلى ما تقوم به تركيا في سوريا، وليبيا، ومنطقة الخليج العربي، والقوقاز، كتبت صحيفة التايمز البريطانية، في آب من العام الجاري، نقلاً عن رئيس الموساد يوسي كوهين: إن "خطر تركيا على إسرائيل بات يفوق خطر إيران".

3 - تطور الصراع:

على الرغم من أن الأرمن يشكلون 94 بالمائة من النسيج الاجتماعي لإقليم ناغورنو كاراباخ، لا يزال الإقليم مرتع نزاع بين أرمينيا وأذربيجان، وتعود أطوار أزمة هذا الإقليم إلى القرن الماضي، إذ أنه وقبيل سقوط الإمبراطورية العثمانية انهار النظام القيصري في روسيا وتمكن البلشفيون من استلام زمام الأمور عقب ثورة تشرين الأول 1917. وتزامناً مع ذلك أعلن الأرمن والأذربيجانيون والجورجيون إنشاء دولتهم المستقلة في القوقاز والتي عرفت باسم الجمهورية الترانسقوقازية الديمقراطية الاتحادية. وبعد ذلك اختلفت هذه الجمهورية الحديثة بشعوبها الثلاثة حول المبادئ والأهداف، فعمدت جورجيا إلى اعلان استقلالها يوم 26 أيار 1918 لتتبعها بعد ذلك كل من أرمينيا وأذربيجان اللتين أعلنتا انفصالهما

بعد يومين فقط. وبلح البصر اندلعت المواجهات العسكرية بين الأذربيجانيين والأرمن حول بعض المناطق وكانت من جملتها كاراباخ، حيث تنازع الطرفان حينها السيطرة على ترسيم الحدود بينهما. وبحلول شهر نيسان 1920 اجتاحت القوات السوفييتية المنطقة وضمت كلاً من أرمينيا وأذربيجان وحولتهما إلى جمهوريتين سوفيتيتين. وبعد ذلك صوت السوفييت في البداية لصالح ضم منطقة كاراباخ لأرمينيا جراء سكن 94 بالمائة من الأرمن في أراضيها، إلا أن موسكو عادت وتراجعت عن قرارها وفضلت ابقائها تحت سيطرة أذربيجان بهدف الهاء الطرفين عن الاهتمام بقضايا ومشاكل الاتحاد السوفيتي. ومع تولي ميخائيل غورباتشوف زمام الأمور في موسكو وتزامناً مع تفكك الاتحاد السوفيتي اندلعت حرب ضروس بين أرمينيا وأذربيجان حول كاراباخ فأسفرت عن سقوط أكثر من 30000 قتيل وجريح وتشريد عشرات آلاف آخرين قبل أن يتم وقف اطلاق النار بمساهمة من منظمة مينسك التي ظهرت مطلع التسعينات لايجاد حل للأزمة الأرمينية الأذربيجانية. وبتاريخ 17 نيسان 2016 افادت وكالة سبوتنيك الروسية بأنه بعد عقود عدة من الصراع الأذري الأرميني على أحقية السيادة على منطقة ناغورنو كاراباخ وانفجار الوضع بين أرمينيا وأذربيجان لوحظ دور متقدم لإسرائيل في الصراع و السبب أن باكو أي عاصمة اذربيجان تمنح تل أبيب 40 بالمائة من استهلاكها من النفط . وبتاريخ 28 أيلول 2020، اعتبرت روسيا أن أرمينيا تشكل عاملاً هاماً في الصراع الدائر بين موسكو من جهة والدول الأوروبية وتركيا من جهة ثانية للتحكم في أنابيب النفط والغاز القادمة من بحر قزوين والتي تتقاطع خطوطها في هذه المنطقة الدقيقة والحساسة .

من جهة أخرى اعتبر الباحث في الشأن التركي الاقتصادي أحمد مصبح أن البعد الاقتصادي هو أحد أهم أركان التحالف الاستراتيجي بين تركيا و أذربيجان ويشكل عاملاً هاماً في انفجار الحرب مع أرمينيا ، إذ ان تركيا تعتبر ثاني أكبر سوق للصادرات الأذربيجانية بقيمة 1.85 مليار دولار، وبالمناسبة يبلغ حجم إجمالي التبادل التجاري بين الطرفين 3.3 مليارات دولار، ويسعى البلدان إلى رفع حجم التبادل التجاري إلى 15 مليار دولار خلال السنوات الثلاث المقبلة. ويضيف مصبح وبعيداً عن العلاقات

التجارية والروابط الثقافية فإن أذربيجان تعتبر ثاني أكبر مورد غاز لتركيا بعد روسيا كما ترتبط تركيا بأذربيجان من خلال ممر لنقل الغاز اسمه تاناب والذي يربط بدوره بين أذربيجان وأوروبا ويبلغ طوله 3500 كم. ويمنح هذا المشروع تركيا دوراً أكبر على صعيد الطاقة العالمية حيث يمكنها من تأمين احتياجاتها من الطاقة ويستهدف هذا المشروع نقل 16 مليار متر مكعب من الغاز الأذري سنوياً وفق مصبح الذي اضاف أن تركيا تستقبل سنوياً مليون سائح من أذربيجان، في حين أفادت صحيفة الاندبنتد الصادرة باللغة العربية بتاريخ 28 أيلول 2020 بأنه وفقاً للتقارير المنشورة سابقاً فإن الغاز الروسي باهظ الثمن بالنسبة لتركيا. من هنا فإن أذربيجان تسعى لاحتلال ناغورنو كاراباخ أو المواقع الاستراتيجية فيها، لجعل تركيا تشتري الغاز الأذربيجاني بدلاً من الغاز الروسي. ومن خلال الحصول على الغاز الأذربيجاني عبر الأناضول ستمكن تركيا من خفض تكاليفها بشكل كبير. والجدير بالذكر أن موقع صوت أميركا كان قد نشر بتاريخ 17 حزيران 2020 تقريراً أكد في مندرج من مندرجاته أن موسكو دفعت على الأرجح أرمينيا إلى شن الهجوم على أذربيجان لمنع تركيا من استيراد الغاز الأذربيجاني والاستمرار في شراء الغاز الروسي. والتطور الجديد في هذا الصراع، كان إرسال مقاتلين سوريين بواسطة تركيا للقتال الى جانب أذربيجان. وفي هذه الاثناء انخفضت واردات تركيا من الغاز الطبيعي من إيران وروسيا بنسبة 44.8% و 41.5% على التوالي في النصف الأول من العام 2020 مقارنة بالفترة نفسها من عام 2019. واستوردت تركيا أكبر كمية من الغاز وصلت إلى 5.44 مليار متر مكعب في النصف الأول من 2020 من أذربيجان، مسجلة زيادة بنسبة 23.4% مقارنة بالفترة نفسها من عام 2019. واستوردت تركيا الغاز أقل بنسبة 46% من إيران في النصف الأول من العام الحالي، حيث انخفضت واردتها من 3.75 مليار متر مكعب إلى 2.02 مليار متر مكعب، ولم يكن هناك أية واردات للغاز في الفترة من نيسان إلى حزيران 2020 .

كانت إيران وروسيا هما مصدر الغاز إلى تركيا خلال السنوات الماضية، لكن أذربيجان حلت مكانهما بعد تشغيل خط لنقل الغاز إلى أنقرة. وترى الباحثة الأذرية سعيدة زاهدوفا أن تراجع واردات الغاز

الإيراني والروسي إلى تركيا، مقابل تزايد واردات الغاز من أذربيجان، هو سبب تجدد الاشتباكات. ومن جهة أخرى يرى الباحث والمحلل السياسي المختص في الشأن التركي مايكل تانشوم إن أرمينيا - حليفة روسيا وإيران- قد تهاجم خط الأنابيب الأذربيجاني الذي ينقل الغاز إلى تركيا وإلى الاتحاد الأوروبي. وكانت وسائل الإعلام في أذربيجان قد قالت، في 7 أيلول 2020 إن روسيا أرسلت أسلحة إلى أرمينيا عبر إيران بعدما أغلقت جورجيا حدودها في وجه موسكو.

4 - التموضع الإسرائيلي في الحرب:

العلاقات بين أذربيجان و"إسرائيل" جعلت الأخيرة عاملاً مؤثراً في الصراع الأذربيجاني-الأرمني المستمر، حيث وجدت تل أبيب بالتوتر المتصاعد في جنوب القوقاز مدخلاً لها ضد طهران، بالإضافة إلى مصالح أخرى اقتصادية. وعلى الصعيد الثقافي، كانت أذربيجان وما زالت موطناً لجالية يهودية تتركز في باكو وشمال مدينة قباء، تعيش في البلاد فترة دامت أكثر من 2,000 عام. ويبلغ عدد سكان هذه الطائفة حالياً ما يتراوح بين 20,000 - 25,000 نسمة، على غرار السكان اليهود في إيران وتركيا. ويتمتع اليهود الأذربيجانيون بالأمن وحرية العبادة والثقافة؛ ويقوم الرئيس علييف كل عام بزيارة مؤسسات الجالية في قباء ويوجه لهم برقيات التهنئة في الأعياد اليهودية، وبياناً تضامنياً في يوم ذكرى المحرقة. فما دور "إسرائيل" وتموضعها في الحرب؟

لقد سارعت "إسرائيل" في عام 1991 إلى الاعتراف باستقلال أذربيجان، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. ولم يمضِ عامان حتى كان لـ"تل أبيب" سفارة في العاصمة الأذربيجانية باكو، وخلال تلك الفترة كانت أذربيجان تخوض حرباً مع أرمينيا. والجدير بالذكر أن جذور الخلاف بين أذربيجان وأرمينيا تعود إلى عام 1923 عندما أعطت حكومة الاتحاد السوفياتي منطقة "ناغورنو-كرباخ" (قره باغ) رسمياً لأذربيجان وحصل نوع من الاتفاق بين الأقاليم التابعة للاتحاد السوفياتي في جنوب القوقاز (أذربيجان أرمينيا جورجيا)، أدارته السلطة المركزية للأخير، أنهى سنواتٍ من القتال العرقي كان للسلطنة العثمانية

دور بارز فيه. والخلاف بين أذربيجان وأرمينيا عاد إلى الواجهة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، حيث سعى كل من الدولتين المستقلتين حديثاً إلى ضم تلك المنطقة اليه. فأذربيجان ترى أن منطقة "قره باغ" تقع داخل أراضيها، فيما تستند أرمينيا إلى أن أغلبية سكان تلك المنطقة من الأرمن، مبررةً بذلك إخضاعها لسلطتها. وفي 10 كانون الأول عام 1991، بدأت منطقة "قره باغ" تطلب الاستقلال من أذربيجان، والانضمام إلى أرمينيا ولكن هذا لم يتحقق. وما تحقق هو إعلان الاستقلال فقط كـ"جمهورية مرتفعات قره باغ"، والتي لم تعترف بها أي دولة، بما فيها أرمينيا، رغم أن البرلمان المحلي طلب الانضمام إلى أرمينيا في عام 1988، كما أظهرت الاستطلاعات الشعبية طلباً مماثلاً. انطلاقاً من ذلك، نشبت ما عرفت بـ"حرب مرتفعات قره باغ" عام 1992، عندما بدأت مجموعات أرمينية في "قره باغ" بمواجهة عسكرية مع سلطات أذربيجان وذلك بدعمٍ عسكري ولوجستي من قبل الحكومة الأرمينية، واستمرت الحرب حتى عام 1994، وتم التوصل إلى وقفٍ لإطلاق النار ضمن مساعٍ روسية (ومجموعة مينسك).

بين الأعوام 2008 و2016 حصلت مناوشات عديدة بين أذربيجان وأرمينيا خلفت عشرات القتلى بين الطرفين دون التوصل إلى أي تسوية تنهي النزاع بشكلٍ كامل. وخلال الفترة القريبة الماضية، عادت تلك المناوشات بشكلٍ أكثر حدةً من جديد.. فما هي خلفيات الدور الإسرائيلي في هذه المواجهة؟ لقد بينت وثيقة أميركية مسربة عبر موقع "ويكيليكس" في عام 2011 أن "إسرائيل" وأذربيجان وقعتا على صفقات أسلحة بمئات ملايين الدولارات. والوثيقة أظهرت أن "إسرائيل" تهدف من إبرام هذه الصفقات إلى "استغلال أذربيجان للتجسس على إيران". وذكرت الوثيقة التي أرسلت من السفارة الأميركية في أذربيجان إلى وزارة الخارجية الأميركية في كانون الثاني عام 2009، أن "إسرائيل تحاول بناء تحالف أمني مع أذربيجان ووقعت معها على اتفاقيات أمنية لإنتاج طائرات بلا طيار". وبحسب معد البرقية، فإن "الهدف الأساسي الإسرائيلي في هذه العلاقات هو ضمان أذربيجان كحليف ضد إيران، كآلية للحصول على معلومات استخباراتية حول إيران، إضافة لتسويق منتوجاتها العسكرية"، على

أن تزود "إسرائيل" بأذربيجان بتكنولوجيا عسكرية متطورة "تحسباً لحرب محتملة مع أرمينيا". وكشفت تسريبات وثائق "ويكيليكس" أن "إسرائيل" تتخذ من أذربيجان مقراً لها للتجسس على إيران، من خلال قاعدة متقدمة لجهاز الموساد لا تبعد سوى مسافة عدة ساعات من الحدود، يعمل فيها العشرات من عملائه باستخدام "وسائل متطورة من أجهزة التنصت".

مجلة "فورين بوليسي" الأميركية تطرقت إلى هذا الموضوع أيضاً في عام 2012، متحدثة عن محاولاتٍ إسرائيلية، لإيجاد موطئ قدم في القواعد الجوية الأذربيجانية "بغية استخدامها في حال أي هجوم إسرائيلي محتمل على المنشآت النووية الإيرانية". ونقلت المجلة عن مصادر استخبارية ودبلوماسيين قولهم إن "الولايات المتحدة استنتجت أن إسرائيل حصلت على موطئ قدم في القواعد الجوية الواقعة شمالي إيران"، معتبرةً أن تل أبيب "تمكنت من شراء مجال جوي وهذا المجال يدعى أذربيجان".

معلومات المجلة الأميركية تزامنت مع توقيع "إسرائيل" وأذربيجان في شباط عام 2012 على صفقة أسلحة بقيمة 1.6 مليار دولار تبيع تل أبيب بموجبها باكو طائرات بدون طيار وأنظمة دفاع جوي. وفي السياق ذاته، نقلت وكالة "رويترز" عن عسكريين أذربيجانيين تأكيدهم أن "أذربيجان وإسرائيل تدرسان كيف يمكن للقواعد والمخابرات الأذرية المساهمة في أي هجوم محتمل على إيران"، وذلك في ذروة التصريحات الإسرائيلية حينها، عن إمكانية قيام تل أبيب وبشكلٍ منفردٍ بضرب المنشآت النووية الإيرانية. وبرغم نفي أذربيجان لذلك، فقد صرّح رسيم مصعبيوف، وهو عضو في لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان، أنه من المحتمل أن تساهم بلاده في أي خطط إسرائيلية ضد إيران "على الأقل في حالة الطوارئ لإعادة تزويد القوات الهجومية بالوقود"، مشيراً إلى أن "إسرائيل لديها مشكلة تتمثل في أنها إذا كانت ستقصف إيران ومواقعها النووية فإنها تفنقر إلى إعادة التزود بالوقود".

وسائل إعلام عبرية (صحيفة يديعوت أحرونوت) أيضاً كشفت جزءاً مما التزمت إسرائيل الرسمية الصمت إزاءه. ووفقاً لتقرير الصحيفة (29/09/2020)، فإنه "في العامين الماضيين، وربطاً بالتعاون

الأمني بين إسرائيل وأذربيجان، كانت طائرات نقل أذربيجانية تحطّ في قواعد عسكرية تابعة للجيش الإسرائيلي، وتنتقل وسائل قتالية مختلفة إلى باكو. اللافت أنه قبل بدء القتال بين الجيشين الأرميني والأذربيجاني، حطّت طائرتا نقل وصلتا من باكو، في إسرائيل، الأمر الذي تكرّر لاحقاً بعد بدء القتال على رغم الاحتجاج الأرميني؛ إذ هبطت طائرة نقل أذربيجانية مُحمّلة بالوسائل القتالية الإسرائيلية في أذربيجان.

تقرير آخر، بثته "القناة الـ 12" العبرية، نقلاً عن توثيق أذربيجاني لإطلاق صاروخ باليستي استهدف بنية تحتية أرمينية، أثار تعليقاً خاصاً لدى معلقّي القناة للشؤون العسكرية، إذ ظهر أن الصاروخ إسرائيلي من طراز "لورا"، ومداه 500 كيلومتر، مع هامش دقة لا يتجاوز بضعة أمتار. والفيديو، كما أشارت القناة، كشف "سراً كبيراً"، على اعتبار أن الطرفين، الإسرائيلي والأذربيجاني، لم يتحدّثا في الماضي عن صفقة سلاح تتعلّق بهذا النوع من الصواريخ. فهل هي نتيجة شحنات سلاح جديدة؟

يصعب توقّع تحلّي الدولة العبرية عن أذربيجان والتسبّب في تردي العلاقات الوثيقة معها وكانت أرمينيا، في موقف احتجاجي على تزويد أذربيجان بالسلاح الإسرائيلي المتطوّر، استدعت سفيرها في تل أبيب "للتشاور"، الأمر الذي فتح الباب أمام التفاوض بين الجانبين لإيجاد حلّ ما للأزمة الدبلوماسية الناشئة. ووفقاً للسفير الأرميني، أرمين سمباتيان، "يُرجّح أن تعمد إسرائيل خلال يومين أو ثلاثة إلى إيقاف تزويد أذربيجان بالسلاح". وأوضح سمباتيان أن تقديره هذا مبنيّ على وعود تلقّتها بلاده من مسؤولين في الحكومة الإسرائيلية. إلا أن مستويات التواصل بين الجانبين لا تشير إلى جدية إسرائيلية تجاه يريفان، خاصة أن القناة التي اعتمدت عليها تل أبيب هي الرئيس الإسرائيلي، رؤوفين ريفلين، الذي يملك صلاحيات رمزية لجهة اتخاذ القرار. وريفلين، الذي اكتفى بمهاتمة نظيره الأرميني أرمين سركيسيان، أعرب عن أمله في أن تعيد يريفان سفيرها إلى تل أبيب، فيما رفضت وزارة الخارجية الإسرائيلية التعليق على تصريحات السفير الأرميني، مشيرة في ردّ على سؤال من وسائل إعلام عبرية

(معاريف) إلى أنها تمتنع عن التعليق، سواء في ما يتعلّق بكلام السفير أم حول سياسة التصدير الأمني إلى الخارج.

من جهة أخرى اتّهمت آذربيجان الجانب الأرميني بـ"الكذب"، إذ قال رئيس فريق التواصل مع الإعلام الأجنبي في الرئاسة الأذربيجانية، فؤاد أخوندوف، في حديث إلى صحيفة "جيروزاليم بوست"، إن أيّ تقارير عن توقف المبيعات العسكرية الإسرائيلية لآذربيجان هي "أخبار كاذبة". ولفت إلى أن العلاقات بين باكو وتل أبيب "وثيقة جداً"، مضيفاً أن الشراكة هي التي تربط بلاده بإسرائيل، و"كجزء من هذه الشراكة، تأتي الاتفاقات التي أبرمتها آذربيجان مع إسرائيل لتزويدها بالسلاح". وأقرّ أخوندوف بأن جيش بلاده استخدم بالفعل طائرات إسرائيلية من دون طيار في قتاله الحالي ضدّ أرمينيا، التي وصفها بـ"الجانب المحتلّ للأراضي الأذربيجانية".

بناءً على ما تقدّم، يبدو أن وعود إسرائيل لأرمينيا موضع شكّ كبير، ويستعصي على تل أبيب تنفيذها، إذ يصعب توقّع تخليّ الدولة العبرية عن آذربيجان والتسبّب في تردّي العلاقات الوثيقة معها، في سبيل منع تردّي في العلاقات مع أرمينيا ذات الفائدة المحدودة لإسرائيل. فأذربيجان شريكة لإسرائيل، أمنياً وعسكرياً واقتصادياً، والعلاقات البينية لا تقتصر على مليارات الدولارات من مبيعات السلاح، أو كون آذربيجان هي المورد الرئيس لإسرائيل بما يزيد على 40 في المئة من احتياجاتها النفطية، بل هي شراكة تخدم الأمن الإسرائيلي بالدرجة الأولى، الذي يتقدّم أي اعتبار آخر، خاصة أنه، هنا، يسهم في تعزيز الموقف الاستخباري، وكذلك الهجومي، وإن نظرياً، ضدّ العدوّ الأول لتل أبيب، وهو إيران.

تلك الشراكة الأمنية والعسكرية تطورت، حيث وقّعت آذربيجان مع "إسرائيل" في عام 2016 (خلال المعارك مع أرمينيا) اتفاقاً لشراء منظومة "القبة الحديدية" الصاروخية. وأشار الرئيس الأذري إلهام علييف حينها، إلى توقيع عقود بين شركات أذرية وأخرى إسرائيلية، خلال السنوات الماضية، لشراء "معدات دفاعية" بقيمة تصل لنحو 5 مليارات دولار. وفي نيسان عام 2018 تحدث الإعلام الإسرائيلي عن توقيع الحكومة الإسرائيلية مع الولايات المتحدة سلسلة اتفاقيات عسكرية مع عدة دول بينها

أذربيجان. جاء ذلك، بالتوازي مع انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من الاتفاق النووي، وما كان يحكى عن نية أميركية-إسرائيلية مشتركة لضرب إيران.

وظهرت تلك الاتفاقيات بوضوح من خلال الاشتباكات الأذربيجانية-الأرمنية المتواصلة خلال السنوات الماضية، والتي كان آخرها إسقاط أرمينيا للطائرة من دون طيار "Elbit Hermes 900" وهذا النوع من الطائرات يعتبر من أكثر أنواع الطائرات من دون طيار الإسرائيلية الصنع، تطوراً والأكثر ثمناً (سعر الطائرة 30 مليون دولار تمتلك منها أذربيجان 10). وقد جاء ذلك، بعدما قصفت طائرة مسيرة من طراز "Orbiter 1K" في تموز عام 2017، موقعاً للجيش الأرميني في منطقة مرتفعات "قره باغ" المتنازع عليها. وانطلقت الطائرة من الأراضي الأذربيجانية وسرعان ما كُشف أنها إسرائيلية الصنع، واللافت أن من قام بهذه الضربات نيابة عن أذربيجان "شركة أنظمة الدفاعات الجوية" الإسرائيلية، حيث وجه الادعاء العام الإسرائيلي في آب من العام ذاته لائحة اتهام ضد شركة طائرات مسيرة إسرائيلية قصفت أرمينيا نيابة عن أذربيجان خلال عرض عسكري. ووفقاً للتقرير حينها، فقد أرسلت الشركة طاقماً إلى باكو، لعرض الطائرة المسيرة، والتي يمكن إضافة قنابل صغيرة إليها، وتم توجيهها إلى هدف عدو في "مهمة انتحارية". وسبق ذلك أيضاً، استخدام أذربيجان خلال المعارك في عام 2016، طائرة إسرائيلية مسيرة انتحارية أخرى، من طراز "هاروب" تابعة لشركة الصناعات الجوية الإسرائيلية، مما أدى إلى مقتل 7 أرمينيين. وفي عام 2018، كشف شريط مصور أُعد للترويج للجيش المحلي في أذربيجان استخدام المؤسسة العسكرية الأذرية لأنظمة أسلحة متقدمة من تطوير شركات صناعات الأسلحة الإسرائيلية. ويظهر خلال الشريط نظام "تايفون" المدفعي، من صناعة شركة "رفائيل" الإسرائيلية، والذي يطلق صواريخ "سبايك" من السفن البحرية الأذرية. كما بيّن الشريط المصور طائرات من طراز "هاروب" (HAROP)، من صناعة شركة صناعات الطيران الإسرائيلية (IAI).

لا تقتصر العلاقات بين أذربيجان و"إسرائيل" على الشأن العسكري أو المخططات الإسرائيلية ضد إيران، بل لمصادر الطاقة أيضاً دور في تنامي تلك العلاقات. ففي الفترة التي كانت "إسرائيل" تبرم اتفاقيات عسكرية وأمنية مع أذربيجان، كانت تل أبيب ضمن أكبر خمس شركاء تجاريين لباكو، كما تُعد الأخيرة أكبر مورد للنفط لـ"إسرائيل"، حيث تزودها بحوالي 40 بالمائة من استهلاكها السنوي، بينما تُعتبر إسرائيل سادس أكبر مستورد لصادرات النفط الأذربيجاني، حيث يصل النفط الأذري عن طريق خط أنابيب يمر عبر تركيا، في حين شاركت إحدى المؤسسات التابعة لـ"شركة النفط الحكومية لجمهورية أذربيجان" ("سوكار") في أعمال التنقيب عن النفط والغاز قبالة سواحل فلسطين المحتلة في فترات سابقة، وهو المشروع الأول من نوعه لشركة "سوكار" خارج منطقة بحر قزوين.

العلاقات المتطورة والمتبادلة في المنفعة بين "إسرائيل" والسلطات في أذربيجان، وفي ظلّ سعي الأخيرة إلى المزيد من التسلح لمواجهة عدوها أرمينيا، كل هذا يشير إلى أن تل أبيب تؤدي دوراً مركزياً وأساسياً في الصراع القائم إلى جانب باكو.

في المقلب الآخر، فإن أرمينيا التي وقّعت عام 2015 اتفاقية "دفاع جوي مشترك" مع الحليف الروسي، تعتبر حالياً الشريك الاستراتيجي الأول لإيران في منطقة جنوب القوقاز، من جهة العلاقات التجارية بالإضافة إلى قطاع الطاقة، إذ أن يريفان شريك اقتصادي مهم بالنسبة لطهران، حيث تحتاج أرمينيا إلى النفط والغاز الإيرانيين، في حين أن أذربيجان تعتبر منافساً للأخيرة في هذا المجال. ولعلّ أبرز سمات التعاون بين طهران ويريفان في مجال الطاقة، هو خط الأنابيب لنقل الغاز إلى أرمينيا، الذي دشنه الرئيس الإيراني السابق محمود أحمدني نجاد، مقابل حصول بلاده على إمدادات من الكهرباء الأرمينية.

من الناحية الجيوسياسية، تجد أرمينيا في إيران الداعم الأوضح لها جنوباً مع وقوعها في منطقة معادية لها، من الشرق أذربيجان ومن الغرب تركيا ومن الشمال جورجيا، في حين أن إيران تستهدف من خلال علاقتها مع أرمينيا منع الولايات المتحدة و"إسرائيل" من محاصرتها في دول منطقة القوقاز. لذا،

فالصراع بين أرمينيا وأذربيجان، وإن اتخذت فيه إيران دور الوسيط، لكن تداخل العامل الإسرائيلي فيه إلى جانب أذربيجان يجعل إيران وكما هو واضح أقرب إلى أرمينيا، برغم البعد "الطائفي" المشترك مع أذربيجان، ذات الأغلبية الشيعية الاثني عشرية الساحقة. وتعبير الأقرب هنا، لا يعني دخول إيران المباشر أو غير المباشر على خط الأزمة كما فعلت "إسرائيل"، لكنه يأتي في سياق محاولات إيران لمواجهة الخطر الإسرائيلي على بلاد القوقاز بشكل عام، وعليها بشكل خاص، من خلال سعيها إلى إفشال المخططات الإسرائيلية الرامية إلى استغلال الأزمات في تلك المنطقة ضد إيران، حيث أنها تفصل بين مواجهة الخطر الإسرائيلي في القوقاز، وبين علاقتها مع أرمينيا، وبين الصراع الأرميني الأذربيجاني. وبالتالي رفضت إيران، التي لم يتعدّ دروها طرح "الوساطة"، في أكثر من مناسبة، المطالب الأرمينية بدعمها في الصراع ضد أذربيجان، إذ حذرت إيران أرمينيا خلال الأشهر الماضية من إجراء انتخابات رئاسية أو برلمانية في إقليم "قره باغ"، معتبرةً أن ذلك "سيزيد من التوتر في المنطقة"، كما جاء على لسان المتحدث باسم وزارة الخارجية عباس موسوي، في آذار 2020 الماضي.

على هذا النحو، يكون الدور الإيراني، داعماً لتخفيف التوتر في بلاد القوقاز، لا سيما وأن التوتر والتصعيد يعتبران مدخلاً للتدخلات الإسرائيلية الهادفة بشكل أساسي، إلى محاصرتها وزعزعة علاقات دول تلك المنطقة معها، وجعل دول جنوب القوقاز قاعدة للهجوم والتجسس عليها.

من ناحية أخرى رأى عומר دوستري من "معهد القدس للاستراتيجية والأمن" أن المواجهة بين أذربيجان وأرمينيا تستوجب حذراً دبلوماسياً أقصى من جانب "إسرائيل"، وسياسة مسؤولة تقضي بالسير على حبل رفيع. فإلى جانب الصراع على المنطقة، تكتسي المواجهة بين أذربيجان وأرمينيا أبعاداً دينية - تعود إلى بداية القرن الثامن عشر. فعلى مرّ التاريخ مثلت أرمينيا المسيحية الأرثوذكسية بينما مثلت أذربيجان الإسلام. وبشكل طبيعي، فإن القوتين التاريخيتين، الإمبراطورية الروسية - التي مثلت المسيحية الأرثوذكسية الشرقية - والإمبراطورية العثمانية - التي مثلت الإسلام العالمي - تقاثلتا،

الواحدة ضد الأخرى، على مناطق النفوذ هذه ودافعت عن حلفائها (روسيا دافعت عن أرمينيا والعثمانيون عن أذربيجان). ويجد البعد الديني تعبيره أيضاً هذه الأيام، حين يحاول الرئيس التركي تصنيف دولته وشعبه كزعماء العالم الإسلامي، فسارع الى الإعلان عن مساعدة أذربيجان. وبالفعل، دفعت تركيا إلى منطقة المعارك مئات المرتزقة السوريين مباشرة إلى ساحة القتال من إدلب في سوريا بهدف مساعدة القوات الأذرية.

في المقابل، اكتفت روسيا حتى الآن بتصريحات دبلوماسية حيادية، ولكن السنوات الأخيرة شهدت على أنها تعرف كيف تستغل جيداً الأزمات في دول الاتحاد السوفياتي سابقاً كي تعمق نفوذها في هذه الدول. مثلاً السيطرة الروسية على شبه جزيرة القرم في عام 2014 والتدخل الروسي في الحرب الأهلية في أوكرانيا. وكلما استمرت المواجهة العسكرية المباشرة بين أذربيجان وأرمينيا، تتعاظم الاحتمالات للمواجهة بين القوى العظمى.

من ناحية إسرائيل، يرى الباحثون أن المواجهة بين أذربيجان وأرمينيا تستوجب حذراً دبلوماسياً أقصى، وسياسة مسؤولة ودقيقة. وهذه مهمة معقدة للغاية. والدليل على ذلك برز عندما أعلنت وزارة الخارجية الأرمينية مؤخراً عن استدعاء سفيرها في إسرائيل، للتشاور كاحتجاج على تصدير السلاح الإسرائيلي إلى أذربيجان. وإضافة الى ذلك، اقتربت إسرائيل من أرمينيا في السنوات الأخيرة على خلفية تدهور العلاقات بينها وبين تركيا، كنتيجة لسياسة أردوغان المناهضة لإسرائيل. وفي السنوات الأخيرة تتردد إسرائيل حيال الاعتراف بقتل الشعب الأرميني كرد على سياسة أردوغان - الخطوة التي من المؤكد ستسبب تدهوراً أكبر في العلاقات مع تركيا. من جهة ثانية، تقوم بين إسرائيل وأذربيجان علاقات مهمة. فلاسرائيل مصلحة أمنية في الحفاظ على العلاقات مع الأذريين، أولاً بسبب كون أذربيجان مجاورة لإيران - واقع يعزز الردع تجاه طهران، وثانياً بسبب بيع وسائل قتالية من إسرائيل للأذريين؛ وثالثاً تشكل أذربيجان بالنسبة الى إسرائيل مصدراً مهماً للطاقة، إذ تشتري إسرائيل النفط منها. بالتالي على إسرائيل أن تسعى إلى المناورة بين الاعتبارات المتضاربة وإرضاء الطرفين. مثل العمل من خلف

الكواليس مع الدولتين في محاولة للوصول الى تفاهات حول تأخير تصدير السلاح الى أذربيجان في فترة القتال. وفي مثل هذا الوضع سيكون ثمة رضى سواء من أرمينيا أم من أذربيجان. وفي هذا السياق يبدو أن الوعود الإسرائيلية لأرمينيا بتجميد إرسال السلاح إلى أذربيجان أقرب إلى محاولات إسكات منها إلى تعهدات جدية. وهذا ما يوحي به استمرار حركة نقل السلاح، برغم المعارك، إلى باكو، التي يظهر أن تل أبيب ترى في مقاطعتها مخاطر أكبر مما هو كامن في إغضاب يريفان. فأرمينيا تؤكد تلقي وعد من تل أبيب بالتجميد، فيما الأخيرة تلتزم رسمياً الصمت، أما الجانب الأذربيجاني فينفي الأمر بشدة، ويصف الأخبار الأرمينية بـ"الكاذبة". واضح أن إسرائيل تقف إلى جانب أذربيجان في الحرب بين الأخيرة وأرمينيا، إذ إنها باشرت إرسال الوسائل القتالية المتطورة إلى باكو منذ اليوم الأول لنشوب الحرب، ومن بينها طائرات مسيرة وانتحارية ومعدات أخرى، استُخدمت، كما تؤكد الأنباء الواردة من القوقاز، في استهداف المواقع الأرمينية وإلحاق خسائر بشرية وأضرار مادية جسيمة بالجانب الأرميني.

موقف تل أبيب كان متوقعاً، إن لجهة الوقوف - بلا إعلان - إلى جانب الأذربيجانيين، وإن لجهة الصمت الرسمي عن الأحداث؛ ذلك أن إسرائيل تتطلع، في ظلّ دعمها لأذربيجان عسكرياً، إلى أن تحافظ على علاقاتها مع أرمينيا. وكانت وسائل إعلام عبرية (صحيفة يديعوت أحرونوت) كشفت جزءاً مما التزمت إسرائيل الرسمية الصمت إزاءه. ووفقاً لتقرير الصحيفة (29/09/2020)، فإنه "في العامين الماضيين، وربطاً بالتعاون الأمني بين إسرائيل وأذربيجان، كانت طائرات نقل أذربيجانية تحطّ في قواعد عسكرية تابعة للجيش الإسرائيلي، وتنقل وسائل قتالية مختلفة إلى باكو. واللافت أنه قبل بدء القتال الاخير بين الجيشين الأرميني والأذربيجاني، حطت طائرتنا نقل وصلتا من باكو، في إسرائيل، الأمر الذي تكرر لاحقاً بعد بدء القتال على رغم الاحتجاج الأرميني .

بناءً على ما تقدّم، يبدو أن وعود إسرائيل لأرمينيا تبقى موضع شك كبير، ويستعصي على تل أبيب تنفيذها، إذ يصعب توقع تخلي الدولة العبرية عن أذربيجان والتسبب في تردّي العلاقات الوثيقة معها،

في سبيل منع تدرّج في العلاقات مع أرمينيا ذات الفائدة المحدودة لإسرائيل. فأذربيجان شريكة لإسرائيل، أمنياً وعسكرياً واقتصادياً، والعلاقات البينية لا تقتصر على مليارات الدولارات من مبيعات السلاح، أو كون أذربيجان هي المورد الرئيس لإسرائيل بما يزيد على 40 في المئة من احتياجاتها النفطية، بل هي شراكة تخدم الأمن الإسرائيلي بالدرجة الأولى، الذي يتقدّم أي اعتبار آخر، خاصة أنه، هنا، يسهم في تعزيز الموقف الاستخباري، وكذلك الهجومي، وإن نظرياً، ضدّ العدوّ الأول لتل أبيب، وهو إيران. أما الدعم التركي لأذربيجان فإنه يستند على العلاقات التاريخية والعرقية والاقتصادية بين البلدين؛ فالشعب الأذربيجاني ينتمي إلى العرق التركي، أضف إلى ذلك أن تركيا تعتبر أذربيجان واحدة من أهم مصادر الغاز الطبيعي بالنسبة لها بعد أن كانت تعتمد على الغاز الروسي الباهظ الثمن الذي استخدمته روسيا كورقة ضغط على انقرة لتقديم تنازلات في عدد من الملفات الإقليمية وعلى رأسها الملف السوري.

أما موقف إيران الداعم لأرمينيا فإنه يأتي من باب تخوفها من التغلغل الإسرائيلي الاقتصادي والأمني والعسكري على حدودها، ومن مطامع القوميين الأذربيين لبناء وطن واحد بضم شمال غرب إيران إلى أذربيجان الأم؛ حيث يبلغ عدد سكان أذربيجان 9.5 مليون نسمة جلهم مسلمون ينتمون إلى المذهب الشيعي، وفي إيران يصل عدد الإيرانيين ذوي الأصول الآذرية فيها إلى ما يقارب 14 مليون نسمة.

5 - الأسلحة الإسرائيلية في الحرب:

تكشف مقاطع الفيديو التي نشرتها وزارتتا دفاع البلدين، أرمينيا وأذربيجان، عن عشرات الهجمات باستخدام طائرات مسيرة. وتُظهر مقاطع الفيديو دبابات ومدافع مضادة للطائرات وشاحنات مدفعية وبطاريات مضادة للطائرات (بما في ذلك واحدة من S-300s) للجيش الأرميني تم تدميرها . وتنتشر أرمينيا أيضاً مقاطع فيديو مماثلة، حيث تهاجم الطائرات بدون طيار وتسقط الطائرات بدون طيار الأذربيجانية باستخدام البطاريات المضادة للطائرات. وتتمتع إسرائيل بعلاقة طويلة الأمد مع

أذربيجان ويعتمد جزء كبير من قوتها العسكرية على الأسلحة الإسرائيلية. ومن بين أشياء أخرى ، تم بيع أسلحة من صناعة الطيران الإسرائيلية، وطائرات بدون طيار تستخدم لمهاجمة ومراقبة Hermes 450 من إنتاج شركة Elbit ، وجمع معلومات استخبارات الطيران بدون طيار، وصواريخ Spike المضادة للدبابات وأنظمة مضادة للطائرات.

لقد وجدت إسرائيل في أذربيجان مصدرًا مستقرًا وقريبًا نسبيًا للطاقة عبر خط أنابيب النفط الذي يبدأ في باكو ويمر عبر جورجيا إلى مدينة جيهان الساحلية التركية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وقدمت أرمينيا مؤخرًا معرضًا للطائرات بدون طيار التي أسقطتها أو استولت عليها واستخدمها الجيش الأذربيجاني. ويظهر الفيديو العديد من الطائرات بدون طيار التي صنعتها الشركات الإسرائيلية. ووفق قاعدة بيانات المعهد الدولي لأبحاث السلام في ستوكهولم، مثلت إسرائيل على مدار السنوات الخمس الماضية، أول مزود أسلحة أجنبي معروف لأذربيجان بين عامي 2017 و2019 مع مبيعات تجاوزت قيمتها 740 مليون دولار، لكن وزارة الدفاع الإسرائيلية تتحفظ عن نشر تفاصيل حول مبيعاتها من الأسلحة وأسماء عملائها. وكان الرئيس الأذربيجاني إلهام علييف قد أعلن في عام 2016 أن بلاده اشترت معدات دفاعية من الدولة العبرية بقيمة 4.85 مليار دولار. في المقابل، أفاد مكتب الرئيس الإسرائيلي رؤوفين ريفلين، في بيان، بإجراء اتصال بينه وبين نظيره الأرميني سركيسيان. وبحسب بيان المكتب، جاء الاتصال بناءً على طلب من سركيسيان، وجاء فيه أن "ريفلين أعرب عن أسفه إزاء اندلاع أعمال عنف بين أرمينيا وأذربيجان في منطقة ناغورنو قره باغ، وتسجيل خسائر في الأرواح بين الجانبين". وأضاف أن "العلاقات طويلة الأمد مع أذربيجان لم تكن ضد أي من الجانبين". وأشار ريفلين إلى استعداد إسرائيل لإرسال مساعدات إنسانية إلى أرمينيا، كما أعرب عن أمله في عودة السفير الأرميني إلى إسرائيل "قريباً". وفي خطوة تضامنية، رفع السكان في حي الأرمن في البلدة القديمة في القدس الشرقية المحتلة، الأعلام الأرمينية على نوافذ المنازل.

من ناحية اخرى يقول رئيس معهد القدس للاستراتيجية والأمن، إفرايم إنبار، إن أذربيجان تُعد "بلداً مهماً بالنسبة لنا. نحاول دائماً أن نكون مورداً جيداً حتى في أوقات التوتر". ويضيف "على سبيل المثال، زودنا الهند (بالأسلحة) خلال حرب الكارجيل" مع باكستان. وبحسب إنبار فإن على إسرائيل "احترام" عقودها، وهي "ليست منخرطة بشكل مباشر" في النزاع في قره باغ.

6 - خيبة أمل داخل الكيان:

حالة من "خيبة الأمل" سيطرت على عدد كبير من الإسرائيليين جراء انحياز بلدهم لأذربيجان في صراعها مع أرمينيا بالرغم مما يرونه "تاريخياً مشتركاً من معاناة الاضطهاد والإبادة"، لا شيء إلا لاعتبارات "السياسة والمصالح التجارية". ويتزامن هذا الاحساس مع عقد المحكمة الإسرائيلية العليا ولأول مرة جلسة استماع لمناقشة المسؤولية الجنائية في صادرات الأسلحة الإسرائيلية على خلفية شبهات تورط في "ارتكاب جرائم ضد الإنسانية وإبادة عرقية" ضد شعب رواندا، وفق صحيفة "معاريف" الإسرائيلية.

قبل بضعة أشهر، تجددت الاشتباكات بين أذربيجان وأرمينيا في إقليم ناغورني قره باغ. وانتقدت أرمينيا بشدة ومراراً تل أبيب بسبب استمرارها في إمداد أذربيجان بالأسلحة المتنوعة والمتطورة. وإسرائيل هي "مزود الأسلحة الأجنبي المعروف الأول" لأذربيجان -بين عامي 2017 و2019- بمبيعات تجاوزت قيمتها 740 مليون دولار أمريكي، وفق قاعدة بيانات المعهد الدولي لأبحاث السلام في ستوكهولم. وفي المقابل، تتلقى إسرائيل 40% من نفطها من أذربيجان. وهذا ما يدفع إلى الاعتقاد بأن إسرائيل "لن تضحى" بكل هذا. والخبراء الإسرائيليون ينتقدون بشدة سياسة بلدهم المعيبة: "البيع ولا شيء آخر"، وعض البصر عن "الأخلاق وحقوق الإنسان" في دعم أذربيجان ضد الأرمنيين وغيرها من التحيزات السياسية وفي تقديرهم أن "الدولة اليهودية تفشل أخلاقياً برفضها دعم أرمينيا"... وداخل إسرائيل ظهرت الاعتراضات أيضاً. ففي 17 تشرين الأول 2020 تظاهر في القدس عدد من

المواطنين من أصول أرمنية في قافلة سيارات احتجاجاً على بيع إسرائيل الأسلحة إلى أذربيجان. واندلع شجار بين المتظاهرين الأرمن ومواطنين مؤيدين لأذربيجان المسلمة. وفضت الشرطة الاشتباك واعتقلت تسعة أشخاص، فيما نُقل مصابان إلى المستشفى. واتصل الرئيس الإسرائيلي رؤوفين ريفلين بنظيره الأرمني آرمن سركيسيان، في محاولة لتهدئة التوتر عقب استدعاء يريفان، عاصمة أرمينيا، سفيرها لدى تل أبيب. وفي مقال رأي بصحيفة "جيروزاليم بوست"، قالت خبيرة الدعاية السياسية، إميلي شرادر، وهي واحدة من أبرز الشخصيات المؤيدة لإسرائيل، تحت عنوان "لماذا يجب على إسرائيل دعم أرمينيا"، إن "لدى إسرائيل وأرمينيا أسباباً تاريخية عديدة تجعلهما حليفين. ولعل الأكثر وضوحاً هو أن كلا الشعبين قد واجه اضطهاداً هائلاً بسبب عقيدتيهما وعرقيهما". وهي تشير بذلك إلى الجرائم النازية ضد اليهود، و"الإبادة الجماعية" التي ارتكبتها تركيا ضد الأرمن.

بدأت شرادر مقالها بالتساؤل: مع التدخل التركي العدائي، وتحالفات إيران مع أذربيجان، هل يجب أن تستمر إسرائيل في دعم أذربيجان؟ وهل الدولة اليهودية تفشل أخلاقياً برفضها دعم أرمينيا؟ ثم تابعت موضحةً أن لدى إسرائيل وأرمينيا "أسباباً تاريخية عديدة تجعلهما حليفين"، منبهةً إلى أن أكثرها جلاءً هو التشابه بين "الإبادة الجماعية المنهجية للأرمن"، في أوائل القرن العشرين على أيدي الأتراك العثمانيين، و"المحرقة" التي تعرض لها اليهود. وعبرت الكاتبة عن أسفها لأن إسرائيل -بشكل لا يصدق- من الدول التي فشلت مراراً وتكراراً في الاعتراف بإبادة الأرمن. وأرجعت ذلك إلى المصالح السياسية مع تركيا تارةً، والتحالفات مع أذربيجان تارةً أخرى. وبينما اعترفت بكون وضع إسرائيل السياسي مع الدول الإسلامية مثيراً للجدل، لفتت إلى "اعتبارات أخلاقية يجب أن تكون فوق المصالح السياسية"، معتبرةً أن الاعتراف بالإبادة الجماعية هو واحد منها. وقالت: "إسرائيل تجاهلت عمداً وغضت البصر دائماً عن حقوق الإنسان"... لأول مرة، المحكمة الإسرائيلية العليا تعقد جلسة استماع حول المسؤولية الجنائية في صدارات الدفاع الإسرائيلية والتورط في "جرائم ضد الإنسانية والإبادة العرقية" لشعب رواندا

وتابعت: "يجب على إسرائيل الاعتراف بالإبادة الجماعية للأرمن، ويجب على المجتمع الدولي محاسبة تركيا على البلطجة والترويج للحرب رداً على أي اعتراف من هذا القبيل، سواء من إسرائيل أو أي دولة أخرى". لكن شرادر ركزت بقدر أكبر على تفاقم المصالح السياسية المعقدة لإسرائيل مع احتدام المعارك في إقليم ناغورني قره باغ ذي الأغلبية الأرمنية. كما سلطت الضوء على الاتهامات لتركيا بالوقوف خلف هذا التطور الأخير، مذكراً بالتقارير حول تجنيد أنقرة مرتزقة سوريين لمحاربة الأرمن في أذربيجان. وأوضحت ان: "ما يجعل هذا الصراع أكثر تعقيداً بالنسبة لإسرائيل هو أن لدى إسرائيل علاقات دبلوماسية مع أذربيجان ذات الأغلبية المسلمة، وهي دولة مجاورة لإيران، وإن كانت علاقات باردة، ومع تركيا المسلمة، على الرغم من عدائها المتزايد لإسرائيل ودعمها لمنظمات إرهابية مثل (حركة المقاومة الإسلامية الفلسطينية) حماس". وقالت إن استمرار إسرائيل في تسليح أذربيجان يعني أنها تقف بشكل أساسي إلى جانب تركيا وإيران ضد أرمينيا المسيحية. وفي حين أقرت بأن التحالف البراغماتي مع أذربيجان يبدو منطقياً، خاصة لقربها من إيران، شددت على أنه بعيد عن الأخلاق. وردت على الذين يقولون إن إسرائيل اتخذت جانب أذربيجان في ظل تحالف أرمينيا مع إيران، عدو إسرائيل اللدود، قائلةً إنها تفعل ذلك فقط "لأنها معزولة عن جميع الجيران الآخرين وليس لديها مصدر للطاقة غير إيران". وختمت: "في حين أن الوضع الدبلوماسي معقد للغاية، وهناك حجج قوية يجب تقديمها من كلا الجانبين، فإننا لا نعتبر شيئاً إن لم نكن أمة تستطيع أن تتمسك بمبادئها. ليس جانب تركيا وإيران وأذربيجان هو المكان الذي يجب أن تتموضع فيه إسرائيل".

من جهة أخرى قال الصحافي والكاتب الإسرائيلي يوسي ميلمان، محلل الاستخبارات والشؤون الإستراتيجية المخضرم في صحيفة هآرتس: إن "سياسة إسرائيل المعيبة المتمثلة في 'البيع ثم البيع ثم البيع' تؤدي إلى وجود شركاء إقليميين غريبين وتتسبب بتوتر التحالفات التقليدية". لكنه أوضح أن الاستفادة الإسرائيلية من التحالف مع أذربيجان يذهب أبعد من النفط والأسلحة، مشيراً إلى أن الموقع

الإستراتيجي لأذربيجان المجاورة لإيران يجعل منها نقطة محتملة لأي هجوم إسرائيلي رداً على كل خطوة مشابهة من طهران. وأفاد أيضاً بأن تل أبيب ترصد الأنشطة الإيرانية عبر أذربيجان. خبراء إسرائيليون آخرون عبّروا عن شعورهم بالخزي قائلين: "بلدنا لا يقيم اعتباراً للأخلاق وحقوق الإنسان... ونحن لا نعتبر شيئاً إن لم نكن أمة تستطيع أن تتمسك بمبادئها. مع ذلك، أصروا على أن استمرار إسرائيل في عدم الاعتراف بالإبادة الأرمنية لعدم إغضاب الأتراك، وتسليح أذربيجان الماضية في قتال دموي ضد الأمنيين، وهذا أمر معيب... معيب جداً، لا توجد كلمة أخرى تصف هذا". وأكدوا أن: "الاعتبارات الأخلاقية ينبغي أن تكون ذات مكانة في العلاقات الخارجية. الدول الغربية تورد الأسلحة لكنها أيضاً تحترم الاعتبارات الأخلاقية والعقائدية. كل ما تفعله إسرائيل هو البيع ثم البيع ثم البيع ولا شيء آخر". وختموا بالتأكيد على أن إسرائيل لم تكن يوماً مدافعة عن حقوق الإنسان إذ "تجاهلت عمداً وغضت البصر" عن الإبادة والقتل الجماعي الذي تعرضت له الأقلية المسلمة في ميانمار والحرب الأهلية في جنوب السودان والآن الاقتتال بين أرمينيا وأذربيجان". وفي السياق تجدر الإشارة إلى أن المحكمة الإسرائيلية العليا وافقت أخيراً على عقد جلسة استماع استجابةً لالتماس يطلب محاكمة تجار أسلحة إسرائيليين كانوا مسؤولين عن الصادرات الأمنية لرواندا إبان الحرب الأهلية التي نشبت فيها بين عامي 1990 و1994 برغم رفض الحكومة الإسرائيلية النظر في الأمر.

7 - من هم الراحون والخاسرون:

ربما نشهد اليوم صعود جيب صغير حبيس في طرف بعيد من منطقة القوقاز باعتبارها شعلة اللهب التي قد تهدد أمن الكثير من الدول، منها روسيا وتركيا وإيران، علاوة على العاملين الأساسيين المعنيين به: أرمينيا وأذربيجان. فعلى أرض الواقع تغطي المنطقة المعروفة بأسماء متنوعة مثل هاي قره باغ وناغورنو قره باغ في الروسية، وأرتساخ في الأرمنية، و قره باغ أوليا في الفارسية، مساحة تقدر بـ4400 كيلومتر مربع، ما يقل عن نصف مساحة لبنان، في الوقت الذي يبلغ عدد سكانها 150000

نسمة ينتمي أكثر من 90 في المائة منهم عرقياً إلى الأرمن. ومع ذلك، ففي عام 1924، عندما كان جوزيف ستالين مسؤولاً عن شؤون القوميات داخل الاتحاد السوفياتي الذي كان قد جرى تأسيسه حديثاً حينها، وعمل على تقسيم الإمبراطورية القيصرية المنهارة إلى جمهوريات، قرر ضم هاي قره باغ إلى جمهورية أذربيجان المتمتعة بالحكم الذاتي. ولو أن ستالين اعتمد في قراره على طبيعة السكان، فإن هذا الجيب كان ينبغي إلحاقه بأرمينيا، جمهورية أخرى وضعتها على الخريطة.

لم يتوقف تلاعب ستالين بالحدود عند هذا الحد، فقد وضع جزءاً من أذربيجان الجديدة التي ابتدعها، عرف باسم نخجوان، على مسافة عن باقي أرجاء الجمهورية مع وجود أرمينيا محاصرة في الوسط. وتمادى ستالين أكثر بتقسيمه جيئاً تنتمي غالبية سكانه إلى الأكراد يحمل اسم لانتشين ما بين أرمينيا وأذربيجان، مع ضمه تالش وهي منطقة ساحلية غير آذارية إلى أذربيجان. وسعت استراتيجية «فرق تسد» التي انتهجها ستالين إلى استمرار اعتماد «الدول الأسيرة» الخارجة من عباءة الإمبراطورية البولشيفية على «روسيا الأم» لضمان السلام والأمن.

وعندما انهار الاتحاد السوفياتي عام 1991، كان من المحتم أن يواجه العبث الجيوسياسي الذي صنعه ستالين تساؤلات وعلامات استفهام كثيرة. وسعيأ وراء استغلال الفرصة السانحة، أقدم السكان الأرمن لهاي قره باغ على طرد أبناء الأقلية الآذارية لما أصبح بعد ذلك نموذجاً للتطهير العرقي في مناطق أخرى. وبدعم من أرمينيا، حققت الجيوب التي يسودها الأرمن سلسلة من الانتصارات العسكرية، ونجحت في بناء جمهورية لها تتعم بالحكم الذاتي. ويعود هذا الأمر لأسباب، منها أنه على مدار التاريخ السوفياتي، لعب عرق الأرمن، رغم كونهم أقل عدداً، دوراً أكبر بكثير من الآذاريين، العرق السائد بين سكان أذربيجان. وطالما ضمت القيادة المركزية السوفياتية أرمينياً على المستويات السياسية والعسكرية. ووصل بعض الأرمن، مثل أنستاس ميكويان، إلى أعلى المستويات. وحتى اليوم، يتمتع الأرمن الذين قرروا البقاء داخل روسيا بتمثيل رفيع المستوى في هرم القيادة في موسكو، ومن بينهم وزير الخارجية الحالي سيرغي لافروف، واسمه الأرميني الحقيقي هو سيرغي كالانتاريان.

على النقيض، نجد أن الآذاريين الذين عاشوا في روسيا قرروا العودة إلى أرضهم بشكل جماعي، وسرعان ما حصدوا ثروة جديدة بفضل عقدين من ازدهار إنتاج النفط. وعلى امتداد جزء كبير من التاريخ لطالما تطلع الأرمن باتجاه روسيا، الدولة التي تدين مثلهم بالمسيحية الاورثوذكسية، باعتبارها الحامية لهم في مواجهة الدول المجاورة خاصة الإمبراطورية العثمانية. وكان ذلك واحداً من الأسباب وراء موافقة أرمينيا بعد نيلها استقلالها بفترة قصيرة على استضافة قاعدة عسكرية روسية كبرى ضمت في ذروتها 20000 جندي روسي.

على النقيض، لعب الكثير من القادة في أذربيجان ببطاقة العداء لروسيا من خلال التعبير عن مظالم تاريخية ضد «المحتلين». ورغبت أذربيجان المستقلة في الانضمام إلى «العالم الغربي»، وعمدت إلى طرح نفسها باعتبارها حليفاً للولايات المتحدة بالمنطقة الأكثر جدارة بالثقة. ومن أجل تأكيد هذه النقطة، بنت أذربيجان علاقات وثيقة مع إسرائيل لدرجة بلغت حد التعاون العسكري الوثيق عن محور باكو - تل أبيب. وفي ظل الجولة الأخيرة من القتال، تمتعت أذربيجان بتفوق واضح في التسليح؛ الأمر الذي يعود الفضل الأكبر فيه إلى الدعم الإسرائيلي. ومع ذلك، تبدو إسرائيل حريصة على عدم خسارة حليفها الإقليمية الأخرى، أرمينيا. ومكّن هذا الوضع الغامض تركيا من طرح نفسها باعتبارها الداعم الرئيس لأذربيجان مع تصوير روسيا وجمهورية إيران في الوقت ذاته باعتبارهما حليفين لأرمينيا.

من جانب آخر، تبدو القيادة في طهران متحيرة إزاء أي نهج يتعين عليها اتخاذه من الحرب. لا سيما أن أعمال القتال بين أذربيجان وأرمينيا تخلق تهديداً أمنياً لإيران ذاتها. وفي سياق الحرب سقطت مئات القذائف التي أطلقها الجانبان داخل مناطق حدودية مع إيران. ومن الممكن أن يطلق القتال موجات ضخمة من اللاجئين الذين قد ينظرون إلى الأراضي الإيرانية كملاذ آمن أمامهم. ومن بين المسائل الأخرى التي تثير قلق القيادة في طهران، الدفع بمئات المرتزقة السوريين الى صفوف القوات الأذربيجانية عبر تركيا. وليس لدى هؤلاء المقاتلين خبرة تذكر في القتال عبر الجبال الشاهقة بمنطقة القوقاز، خاصة في ظل طقس الشتاء القاسي. وهذه القوات تضم مسلحين من جماعة «الإخوان»؛

الأمر الذي ربما يمكّن تركيا من بناء «فيلق أجنبي» تابع لها مما يخلق تحدياً أمام إيران في مناطق أخرى، منها العراق ولبنان.

من ناحية أخرى، حاول إردوغان تبرير دعمه لأذربيجان من خلال الادعاء بأن مقاتلي حزب العالم الكردستاني، الذين من المفترض أنهم يتحركون من داخل السليمانية في العراق عبر إيران، انضموا إلى القوات الأرمنية في قره باغ. كما أحيا إردوغان من جديد فكرة «العرق التركي» التي بدأ اللعب بها وعليها في وقت قريب فقط لدعم ادعائه بأن الإسلاموية تشكل أساس الهوية التركية. وتجلت أزمة الهوية التي يواجهها إردوغان عندما جرى عقد إحصاء وطني منذ عامين، وجرى في إطاره توجيه سؤال للمواطنين بتحديد جذورهم العرقية. وفي إجاباتهم، لم تشر سوى أقلية من المواطنين إلى اعتبار انفسهم أتراكاً؛ مما اضطر الحكومة إلى تعديل نتيجة الإحصاء. وكشف الإحصاء عن أن غالبية المواطنين لا يزالون مرتبطين بالهويات التي كانوا ينتمون إليها في ظل الإمبراطورية العثمانية، مثل الداغستاني، والشيشاني، والعلوي، والكردي، والعربي، والبيزنطي، والبلغاري، بل وحتى اليوناني والأرمني. ودفعت النتيجة الصادمة إردوغان إلى محاولة ممارسة غش تاريخي في قضية الهوية عبر الادعاء بأن الأتراك أحفاد الحثيين الذين يعود تاريخهم إلى 3000 سنة ماضية.

جدير بالذكر أيضاً أن جمهوريتي أرمينيا وأذربيجان، علاوة على جورجيا، قد جرى التنازل عنها من جانب الإمبراطورية العثمانية لإيران بموجب معاهدتي أماسية (1550) وقصر شيرين (1639). ومقابل ذلك، حصل العثمانيون على بلاد الرافدين، العراق حالياً بجانب أبخازيا وأجاريا والجزء الأرمني من الأناضول. وفي حال فوز أذربيجان في الحرب، فإن تحالفاً مؤلفاً من تركيا وإسرائيل والولايات المتحدة سينتهي به الحال في المعسكر الفائز، بينما سيجري النظر إلى إيران باعتبارها غير مبالية بتطلعات أذربيجان التي من المفترض أنها ثالث أكبر دولة شيعية بعد إيران والعراق. أما إذا انتصرت أرمينيا، فإن الفائزين سيتضمنون روسيا وإسرائيل، بينما ستبقى إيران مرة أخرى في موقع الحيرة، علماً

انه وعلى مدار الأعوام الـ30 الماضية، شكّلت إيران شريان حياة لأرمينيا الحبيسة، حيث جرى تمرير التجارة الخارجية الأرمينية من خلال أراضيها وحصلت على احتياجاتها من الكهرباء. مع الاخذ بعين الاعتبار العلاقات الأذربيجانية الإيرانية المعقدة (في طهران، لا ينسى الإيرانيون مزاعم القيادة الأذربيجانية بشأن أذربيجان الكبرى، بما في ذلك أذربيجان الإيرانية، وفي باكو يتذكر الأذربيجانيون محاولات "آيات الله" اختراق سكان الدولة الواقعة عبر القوقاز)، فقد قامت إسرائيل بتسليح أذربيجان تحسباً لحرب محتملة، ليس ضد أرمينيا، بل ضد إيران. وفي وقتٍ ما، سرت شائعات تفيد بأن أذربيجان يمكن أن تصبح واحدة من نقاط انطلاق للعملية الأميركية - الإسرائيلية ضد الجمهورية الإسلامية. باكو، بالطبع، تنفي وجود مثل هذه المحادثات، وتتحدث عن عدم التدخل في الصراع بين طهران وتل أبيب. ومع ذلك، فإن الوضع في الشرق الأوسط في الوقت الحالي ليس على تلك الدرجة العالية من التوتر التي من شأنها أن تجعل رئيس أذربيجان، إلهام علييف، مضطراً لاتخاذ خيار نهائي بين إيران من جهة وإسرائيل والولايات المتحدة من جهة أخرى. ولكن "عدم التدخل" الأذربيجاني لا ينفي حقيقة أن الإسرائيليين يقومون بعمليات استطلاع (وربما عمليات تخريب) ضد إيران من أراضي أذربيجان.

الإيرانيون يصرون على أسنانهم، لكنهم ليسوا في عجلة من أمرهم لتوجيه الإنذارات إلى القيادة الأذربيجانية. وإيران الآن ليست في وضع يمكنها من تحويل دولة محايدة رسمياً إلى عدو جديد. ان مشكلة المنطق الإسرائيلي المتمثل في معادلة "نحن ندعم الأذربيجانيين ضد إيران" هي أن إسرائيل في الواقع لا تدعم باكو بقدر ما تدعمها أنقرة، فأذربيجان شريك أساسي لتركيا، وبحسب العقيدة التركية، فإنّ الرئيس التركي رجب طيب أردوغان هو حاكم أذربيجان والعالم التركي بأكمله.

تركيا بالذات، تبدو اليوم واحدة من أشد المعارضين لإسرائيل، على النحو الذي تبدّى في الدورة الاخيرة لاجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، حين غادر المندوب الإسرائيلي قاعة الجلسات في اللحظة التي تحدّث فيها أردوغان عن "اليد القذرة التي تمسك بالقدس، حيث توجد الأماكن المقدسة لديانات

العالم الثلاث". ومن المتوقع حدوث العديد من الاشتباكات من هذا النوع، وبعد كل شيء، ستخفف العلاقات بين البلدين شهراً تلو الآخر.

لقد أدت سلسلة اتفاقيات السلام بين إسرائيل ودول الخليج (التي بدأت بتوقيع اتفاقيتين مع الإمارات والبحرين) إلى تفاقم العلاقات الفلسطينية-الإسرائيلية وتقرّب تل أبيب من دول الخليج. وهذا الأمر يؤدي إلى زيادة حدة المشاعر السلبية في العلاقات بين إسرائيل وأردوغان. ستمول تركيا حركة "حماس" وتقدم المساعدة المعنوية والمادية للمقاومة الفلسطينية، وقد يصل الأمر إلى دعمها بمجموعات "الباشيبازوك" (عساكر غير نظاميين في الدولة العثمانية) من الإرهابيين السوريين الذين يقاتلون من أجل المصالح التركية في سوريا وليبيا، وحالياً في ناغورنو قره باخ.

ربما يبدو لشخص ما في إسرائيل أن ناغورنو قره باخ أرضاً بعيدة، وبأن الدعم غير المباشر للسياسة التركية في القوقاز (والغرض منه ليس الاستيلاء على قره باخ، ولكن إنشاء منطقة نفوذ تركية من بحر قزوين إلى البحر الأسود مع احتمال امتدادها إلى حدود العالم التركي مع الصين) لا يضر بالمصالح الإسرائيلية بأي شكل من الأشكال. حتى أن البعض سيقول إن ذلك مفيد إلى حد ما لتل أبيب، ففي نهاية المطاف، يساعد القتال في إرسال الإسلاميين السوريين إلى قره باخ للقاء الحور العين. ومع ذلك، فإن اللعبة هنا لا تستحق كل هذا العناء. لا يمكن النظر إلى سياسة تركيا تجاه القوقاز بمعزل عن الخط العام لأردوغان، الذي يتسم بالحزم والعدوانية، فإذا ما سُمح للزعيم التركي بفعل ما يشاء في القوقاز، فسوف يضاعف جهوده لزعة استقرار مناطق أخرى، بما في ذلك الشرق الأوسط.

لقد فهم الفرنسيون، على سبيل المثال، هذا الأمر، ولذلك يتم حالياً تشكيل توافق فرنسي- روسي، حيث لا تدافع باريس عن قره باخ (برغم نفوذ الجالية الأرمنية في فرنسا)، بل تدافع عن اليونان والاتحاد الأوروبي. ربما ينبغي على الإسرائيليين أن يفهموا أيضاً أنه بمساعدة تركيا على مواجهة التهديد الإيراني الأسطوري فإنهم في الواقع يشجعون تركيا على دعم حركة "حماس" والمقاومة الفلسطينية.

خاتمة:

إن الحرب التي دارت مؤخراً في القوقاز بين أذربيجان وأرمينيا لن تفرز في النهاية سوى خاسرين، ذلك أن أذربيجان من غير المحتمل أن تنجح في استعادة كامل السيطرة على الجيب المتنازع عليه. أما أرمينيا، فقد خسرت بالفعل بعضاً من أراضيها وتواجه موجة من المهاجرين المتدفقين على العاصمة. وتركيا، قد تفوز في جولة دعائية باعتبارها حامية الأذاريين، لكنها ستجر بذلك إلى حرب خامسة، في وقت يعاني اقتصادها بالفعل ضغوطاً شديدة، وبالتالي ربما لا تتمكن من دعم احتياجات هذه الحرب. وفيما يخص إسرائيل، فإنها ربما تجد نفسها نهاية الأمر مضطرة إلى اختيار جانب وخسارة الآخر. وستخسر روسيا برؤيتها المتطرفين بينون لأنفسهم معقلاً قريباً من أراضيها مع اضطرارها في الوقت ذاته إلى التخلي عن ادعائها بأنها صانعة سلام بين الجمهوريات السوفياتية السابقة.